الحياة ٢٤-١٢-٩٤

بمناسبة صدور أعماله الفكرية العامة:

قراءة قسطنطين زريق في شخصه وفكره و«آدميته»

غسان سلامة *

■ تجاوز قسطنطين زريق الثمانين دون ان يسأم «تكاليف الحياة». تستفزه، بل تملأه حزناً وتأسفاً، احداث تعبر امام ناظريه كالتسوية العرجاء الجارية في مراحل شبيه. فنزاع بدا بـ «نكبة» كتب عنها منذ نصف قرن، وتعددت «النكسات» الموجعة منذ ذلك الحين، وكذاك الاستعمال البغيض للقومية من قبل انظمة جائرة لا تتورع عن غزو او استتباع بلد مجاور.

ولا يؤرقه امر اكثر من تلاشي المنطق العقلاني في معالجة الامور الطارئة، والقضايا الباقية. فهو جعل من تلك العقلانية متراساً اخيراً في وعيه، وهو قانط من عدم اشتراك الكثرة من الحكام ومن الناس باللجوء الى ذلك المتراس الحصين. توجع واسى، قنوط عابر، غضب مكبوت، تأسف، غير ان الدمشقي المتلبن، الفلسطيني القضية، العربي المنحى، المشرقي المعقلن، لا يسأم حياة حافلة بالأعمال والكتابات، مهما عظمت «تكاليفها».

تلك الأعمال، اصدرها مجتمعة «مركز دراسات الوحدة العربية» في مجلدات انيقة، بالتعاون مع «مؤسسة عبدالحميد شومان»، واختير للعنوان «الاعمال الفكرية العامة».

وحسناً نبذت صفة «الكاملة» لأن الرجل ما زال معطاءً، يكتب ويحاضر ويقول. غير اني توقفت طويلاً امام الصفة العامة، ذلك ان الثمانيني الشديد التهذيب، ما ادخل، يوماً في حضور مريديه، خصوصيات تذكر، وكان الهم العام قد استحوذ منه كامل الوعي، او كان الخاص دُفع الى اللاوعي، او الى الخزائن الحديدية المتينة.

ينتمي قسطنطين زريق الى مدرسة سلوكية، لا تمارس خلط الخاص بالعام، ولا تعبر عن الخاص الا تحت الضغط ذلك ان الخاص ليس عقلانياً، ولا يتم البوح به بتلك السهولة المهرجانية التي تعودنا عليها اليوم.

وفي رفض البوح بالخصوصي، الى جانب تلمس عقلانية قصوى قدر المستطاع، نوع من البراءة السياسية المتعمدة، وهي نفسها رد المفكر على تقلبات الأزمنة السياسية، وحصنه المنيع امام ضغوط اصحاب السيف والقرار.

وابعد من هذه وتلك، ينبع الانخراط الشمولي في العام من حياء الأعيان، وتأففهم من قيام العوام بفلش الاحاسيس والمشاعر والعواطف في الفضاء العمومي.

من هنا تلك البرودة الهادئة المتحكمة بكتابات زريق منذ مطلعها، وهي برودة تعود للطبع كما للتطبع.

يقول في سيرة ذاتية، (تكاد الذات تغيب عنها إلا لماماً)، في مطلع المجلد الاول، انه خبر معالجة ضعف في اللغة الفصحى من خلال الجد والمثابرة. ولكن لغته سوية من الثلاثينات حتى التسعينات، هادئة، واضحة، مُحكمة، تميل احياناً الى الرتابة.

وان كان من رتابة، فهي في تلك القناعة العميقة التي تحكم كتابات انتشرت على ستين سنة من دون توقف، قناعة بانه في الأفكار والأقوال والاعمال والمواقف هناك «الصحيح» و«غير الصحيح».

وفي عصر تتداخل فيه القيم ويغلب الشك على اليقين، وتتهالك فيه كل الامور والافكار التي اعتقد اهلها انها «صحيحة»، ما انفك زريق يعتقد ويردد ان في التربية كما في السياسة، وفي التنمية تماماً كما في الديبلوماسية، وفي الفكر كما في المعيوش، هناك «الصحيح» الذي ينبغي التذكير به وعرضه وشرح تفاصيله، وهناك ما هو «غير صحيح». وكان دور المثقف، كما دور الفقيه في الماضي غير البعيد، هو دور المذكّر بالصحة، والداعي اليها.

ما هو نقيض الصحيح في الكتابة الزريقية؟

النقيض الاكثر تردداً هو «الفوضى» او «التشويش» او «الخلط» او «عدم التمييز». بمعنى آخر فإن المعيار ليس سياسياً ولا هو بالضرورة اخلاقي وانما المعيار الاساس عقلاني، يسمو زريق من خلاله نحواً ديكارتياً صارماً، حازماً، غير متردد. وكمثل صنّاع الحرف الدمشقية، المعروفين بالدقة والمحافظة، فإن زريق يصوغ كلمته كي تأتي مرتبة لأنه يكره انعدام الترتيب، ويخاف من الفوضى، ومن التناقضات، ومن العشوائية، واجمالاً من الامور غير المرتبة، ومن الافكار الحاوية للتباس، ومن التعابير المؤدية الى سوء فهم.

وهو بذلك صائغ دمشقي محافظ يسكب الحروف كما في المرصعات، كل في موقعه، ولا عناصر ساقطة، وما من حشو إضافي.

من هنا شعور مزدوج بمتانة يصعب على المرء منافستها، وبرتابة الهندسة المعمارية الدقيقة المتقنة والمكررة. انه نبذ بدائي للشطحات، صوفية كانت ام شعرية، فردية كانت أم جماعية. والشطحات غير عقلانية، غير مدروسة، غير مخطط لها.

ومن هنا شعور بان ذلك الثبات المثير للاعجاب، على مقاربة الحياة منذ انخراطه فيها، وفق تعلق غريزي بكل ما هو «مرتب»، لم يخلُ من الجمود، ومن الابتعاد الغريزي ايضاً، عن الابتكار والابداع وإعمال الخيال.

غير ان التطور خافت خفي، عليك الغوص في الصفحات كي تكتشفه، لأن الكاتب لا يدل عليه، ولا يريد بالضرورة تبنّيه. والتطور تراه اساساً في جوهر انتماء الكاتب الايديولوجي.

فاول الكتب التي نشرها كان في «الوعي القومي»، وفي مقدمة المجموعة المكتوبة هذه السنة، نرى زريق يؤكد، من جديد وبوضوح، انتماءه لتلك المدرسة في النظر إلى الذات. ولكنه، وقد وصل الى ما يقارب «منتهى الطريق» (أطال الله عمره)، فإنه وجد لزاماً عليه، بحَذَر وتحفظ كعادته، ان يسجل ابتعاده عن جلّ من عاشرهم في تلك المدرسة.

ابتعد عنهم اولا بحزم، في نوع من النقد الذاتي: «كنت في تلك السنوات وما بعدها مباشرة اتخيل ان الحكم المركز خليق اكثر مما هو الحكم الديموقراطي الموزع للسلطات باحداث الهبة المرجوة في شؤون العلم والبحث».

ولكن زريق عاد عن هذا التخيل عودة حاسمة، بل اصبح يؤكد في كتاباته المتأخرة على امرين متكاملين: اهمية العنصر الداخلي في الرقي والتقدم وضرورة احترام حقوق الانسان.

غير ان زريق لا يعالج بصورة مباشرة ذلك الارتباط المزعج والدائم بين جل الحركات القومية والممارسات القهرية والتسلطية، على الاقل في المحيط الغربي.

فعلى الرغم من غلبة روح التسلط على مختلف انواع الانظمة العربية، يبقى السؤال قائماً حول وجود علاقة ما بين الجنوح القومي لدى الانظمة ومستويات عالية من القمع الداخلي، وكان التعلق المعلن لدى بعض الانظمة «بمهمات تاريخية»، تدعي انها اخذتها على نفسها، سمح لها باستسهال القمع والقهر والتسلط.

غير ان هناك مسافة اعمق واهم يضعها زريق بينه وبين ابناء المدرسة القومية في الفكر كما في السياسة، تتعلق بجوهر وجود الأمة العربية نفسها. ولا يسعني الا ان احيي شجاعة الكاتب عند بوحه الصريح الواضح بأنه يختلف «والقائلين بان القومية - اية قومية - نشأت منذ الأزل وما انفكت تميز تطور شعبها خلال مراحل تاريخه. فإني لست اجد في العصور القديمة او الوسيطة روابط «قومية» شاملة وفاعلة».

ويضيف زريق في مكان آخر «ان النظام القومي ليس بالضرورة نظاماً خالداً بشكله الحاضر». وكم هي حاجتنا كبيرة هذه الايام، وتحت قلم رجل تلطى تحت ظله الكثير من القوميين السطحيين، لقول واضح يؤكد ان «الأمة العربية» ليست قائمة منذ فجر التاريخ وحتى انتهائه، وبأن تعبير «الوطن العربي» ليس في مكانه، لأنه قول ايديولوجي غير علمي.

لا ينبغي ابداً ان يؤخذ هذا القول الزريقي الحازم على انه تنكّر لانتماء قومي دائم. على العكس تماماً: ان هذا القول هو تاكيد حاسم لذلك الانتماء باعتباره مشروعاً شاملاً يحسن بالعرب ان يجعلوه اولويتهم.

لكنه مشروع، ورشة، خطة، امل مستقبلي وليس حقيقة قائمة. والامة، بالتالي، هي تكوين نسبي، يصنعه القوميون ان شاؤوا وان قدروا. ووظيفتهم هي بالذات في صنعه، اي في جعله واقعاً، وليست وظيفتهم، كما تصور معظمهم، في استحضار حقيقة تاريخية اسمها «الأمة العربية».

يسمح هذا الموقف العقلاني النسبي والشديد الحداثة، والكبير الاقناع، الى تخليص ابريز الفكرة العربية من النظرة التقديسية لها. ويسمح ايضاً بفصلها الواضح عن الدين.

وفي مرحلة يتساهل فيها المفكرون في دمج الانتماء الديني بالموقف القومي، وبخلط مقتضيات الايمان بالله مع اسس تنظيم الجماعات البشرية، يبدو زريق شجاعاً في ترداد موقفه العلماني دون تحفظ المميز بين القومية العربية والاسلام دون رياء لأرباب الشارع الحاليين، و«قبضاياته»، من دون انتهازية فكرية ومماالة للتيارات الغابرة: «والانظمة الدينية تتوجه في المجتمعات الانسانية من الاعلى الى الادنى عن طريق الوحي الالهي. اما الانظمة القومية فتحاول بناء هذه المجتمعات من الادنى الى الأعلى، اي من الشعب وبالشعب ومن اجل الشعب المعتبر مصدر كل سلطة سياسية ومحرك التحرر والتقدم».

هذا نوع من المواقف الثابتة التي تمسك بها زريق طوال مسيرته، ولكنه شعر بضرورة البت الاوضح فيها الآن، كانه يؤكد مرة اخرى انه يميل لاتباع نصيحة برتولت بريشت العتيقة، «بادارة قفاه للسياسة».

هذه من ناحية اخرى، واحدة من الثنائيات الكثيرة التي يدور حولها قلم زريق: صحيح/غير صحيح، خير/شر، قومي/ديني، واضح/ ملتبس، مرتب/ فوضوي، منفتح/ متعصب... والمجلدات الاربعة تزخر بالثنائيات في كل مجال وقضية: تخلف/ تقدم، ماضي / مستقبل، تطلعات جماعية/ اهواء فردية... يظهر انذاك ذلك الميزان الخفي الذي يسمح للكاتب باولى مهامه اي التصنيف:

فكل فكرة وكل ظاهرة ينبغي اولاً وضعها في احدى فئتين: فهي خيّرة او شريرة، صحيحة او خاطئة. وبالتالي تبرز هنا مكامن عميقة في النظرة للذات وللعالم. فزريق اخلاقياً وادبياً وسياسياً رجل محافظ، يقدر اهمية المعايير المسبقة التي تسمح باتخاذ المواقف، في الخاص والعام، وفقاً لتصنيفات مسبقة. وبالتالي يسهل على زريق ان يموضع ذاته في العالم، لأنه مؤمن بموازينه، قانع بها. وهذه من صفات المعلم والاستاذ، الذي ينظر الى وظيفته الحضارية بوصفها ارشاداً وتوجيهاً للاجيال الجديدة كي تعرف دائماً ما هو خير وما هو شر، وتتمكن تالياً من تصنيف الافكار والاحداث وفق معايير ثابتة.

مرة اخرى يثير ذاك الثبات اعجاباً ما يلبث ان يختلط بقدر من التخوف من العقم. هل ان الامور الكبرى كما الصغرى قابلة فعلاً للتصنيف الى فئتين؟ هل ان القيم فعلاً على ثبات وهل ان المدلول

القيمي لامر او لفكرة يبقى ثابتاً، ام ان ذلك المدلول الى تبدل وفق الايام والازمنة؟

ان الجواب عن هذه الاسئلة مرتبط طبعاً بما اختزنته تجربة الرجل طوال حياة مميزة. وهو يقول في احد الاماكن انه راى وظيفته في ثلاثة: المدرس، والمفكر العمومي، والباحث في التاريخ. ويعترف بتواضع (شعرنا به دوماً صادقاً) بانه قام بوظيفة التدريس قدر امكانه، وانه اعطى للتدريس نفسه كما لادارة الجامعات (لا سيما الجامعة الاميركية في بيروت، ولفترة قصيرة جامعة دمشق)، القدر الهائل من وقته، كما كتب الكثير دعوةً للتربية «الصحيحة» ودفاعاً عن الجامعات.

اما المفكر العمومي فتشهد عليه الاكثرية الساحقة من النصوص المنشورة في هذه المجلدات، فهو يكتب عن النكبة مرة اولى وثانية، وعن النهوض القومي، وعن التقدم والحداثة والعقائد، وكلها كتابات تتوجه للحاكم وللناس في ان معاً تدل الى ما ينبغي القيام به وما يقتضي تحاشيه.

فالرجل "مثقف ملتزم" كما دابنا على القول حتى زمن قريب، ملتزم بقضايا الامة الكبرى، ومع مرور الزمن (لا سيما في مقالاته المتاخرة في هذه الجريدة) بقضايا الناس الاقرب. وفي فترة وسطية (السبعينات والثمانينات) كان جل المثقف الملتزم، التركيز على المستقبل، وكان مرجلة تشبه الهوس بالنظرة المستقبلية عند رجل كان عمله الاساسي النظر في الماضي، بدات في الوقت عينه الذي كان ينتقل فيه للتقاعد. وفي هذا الامر، شيء مثير للتفكير، كما هو مثير للاعجاب والاقتداء.

وكان الكاتب العام راى من واجبه، عند تركه للحياة العملية، ان يرفع التحدي مرة اخرى فلا يغطس في الذكريات وينكب على المذكرات، بل ينظر للجانب الآخر: لقصور مستقبل المجتمعات العربية وفق معايير وافكار واضحة حتى البساطة.

مدرس افنى سنوات العمر داخل اسوار الجامعة، ومثقف ملتزم لا تكفي مجلدات اربعة ضخمة لضم كتاباته العامة: هاتان وظيفتان اكلتا من الوقت والهمة الكثير، غير ان وظيفة ثالثة يعترف زريق بانها كانت الى حد ما ضحية الوظيفتين الاوليين، وهي البحث العلمي الاكاديمي في التاريخ.

هنا تتضح ماهية صفة «العامة» في عنوان المجموعة، اذ ان هذه الاخيرة لا تضم الاعمال الاكاديمية البحتة لزريق، وكان الاكاديمي من المكتوب هو ايضاً بمصاف الخاص. ولهذا فالاعمال ليست كاملة بمعنى انها لا تضم ما سيكتب (ان شاء الله!)، او ما كتب من باب العلم للعلم: اطروحة دكتوراه، او اسهام في مؤتمر مؤرخين، او مقالة في مجلة متخصصة.

وهذا الجانب من الرجل هو الاقل بروزاً وكان الهم العام لم يطغ فقط على الشخص الخاص، بل اكل ايضاً من حصة الخصوصي الاكاديمي ولا ضير في ذلك: فمن منا جميعاً قادر ان يعطي بكرم في المجالات الثلاثة التي افنى الرجل فيها عمره، بصورة متساوية، متعادلة؟

وبالتالي فما من تركيز على مجال الا على حساب آخر. وهذا ما لا ينفيه زريق، بل تشعر احياناً انه يتمنى لو ساوى اكثر بين تلك المجالات الثلاثة (ناهيك عن مراحل قصيرة من العمل الديبلوماسي، ومهام ادارية كثيرة في الجامعات ومراكز الدراسات).

ربما لو اخذ الحيّز الثالث (البحثي) حظه من اهتمام زريق، لكان حزمه في الامور العامة اقل حزماً، ولكانت لغته المنطقية اقل تمسكاً بالثنائيات.

ذلك ان البحث العلمي، تماماً كالسياسة، يدفع بعيداً عن وضوح الاحكام الاخلاقية، والى قدر عميق من التساؤل والشك واعادة النظر. قد يشير هذا القول الى حدود التاثير الآني للكتابة الزريقية، ولكنه يشير ايضاً الى متانة الترفع الاخلاقي لدى رجل يعتبر الكلمة امراً لا يستهان به، ويقتضي احترامه. وهذه امثولة ما زالت حية وجمة الفوائد خصوصاً عندما «تتلاطم الموجات الفكرية العاتية»، وهي عبارة يبدأ بها زريق العديد من كتبه.

وبعد فإن زريق لا يدعي انه مرآة شاملة للقرن الذي عاصره. هو مرآة على بعضه، التحديثي، العقلاني المتعلم،... والشامي، بمعنى تاثره الشديد بالمحيط السوري - اللبناني - الفلسطيني، على الرغم من شمولية عروبته جغرافياً ومن تاثيره على بعض جوانبه، مع استمرار مسافة فكرية وعاطفية دائمة مع بلاد العرب غير الشامية، جزيرةً ومغرباً وكنانة.

لكنها مرآة ايضاً لامر نخاف اليوم اندثاره، طبعني منذ لقائي الاول بالرجل منذ نحو من عقدين، عندما رايته يصعد السلالم، وسيجارة كنت بين اصابعه، نحو الطبقة التاسعة من مبنى «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» قريباً من شارع فردان في بيروت، بينما كنا، نحن «الشباب» ننتظر وصول المصعد للحاق به الى تلك الطبقة العالية. لمست فيه يومها صفات ثلاثاً ما انفكت تتاكد في نفسي: الاقدام مهما كان العمر، الصعود مهما كانت الصعوبات، و«ادمية» عز نظيرها. وما هذه الاسطر الا تحية متواضعة، غير كافية، وانما صادقة، لتلك «الادمية».

---

* كاتب وجامعي لبناني مقيم في باريس.